القدر وفهم السنن وآثرهم فى الجهاد

* * * * * * * * * * * * * *

من كتاب/ مـقـالات بين منهجيـن

بقلم الشيخ..أبو قتادة الفلسطينى..حفظه الله

* *

هناك من الأعمال ما هي داخلة في أصل المسمّى وهي من أركانه (أي لا يصحّ المسمّى إلاّ بها)، وهناك أعمال من واجباته، وهناك أعمال من مستحبّاته:

هذه قاعدة تسري على كلّ الكونيّات التي خلقها الله تعالى من أعمال وأشياء، وهي تدلّ على أنّ أفراد الشّيء أو العمل ليس على مرتبة واحدة، بل هي مراتب متعددة، ونحن في هذا الباب يخصّنا ما هو شرعيّ، مع أنّ الكونيّ مهمّ وضروريّ، وتجليته مهمّة من مهمّات التجديد التي يجب على المسلمين بحثها والنّظر فيها نظرة جديدة، أي أن تعيد الأمر على ما كان عليه وهو جديد في العصور الأولى، لأنّ تلك العصور هي عصور النّموذج المحتذى، والصّورة المثلى، (نبوّة وخلافة راشدة) لحركة المسلمين في الحياة، ولا بأس هنا في هذه العجالة أن نعرّج على ما هو كونيّ لبيان عظيم الفساد الذي دخل على أمّتنا من هذا الباب، ثمّ لبيان أنّ الفساد في فهم الكوني، هو فساد في فهم ما هو شرعيّ، سواء بسواء، والعكس صحيح، لأنّ ما هو كونيّ صادر من الشّرعيّ {**ألا له الخلق والأمر**} والتطابق بينهما حاصل لزوماً، لأنّهما من مصدر واحد، بل إنّ الشّرعيّ لم يعرف صوابه من ذوي العقول إلاّ بعد فهم المهتدي لما هو كونيّ،

والمهتدي يدرك ويعقل ويعتقد أنّ للكون خالقاً وربّاً، وأنّ نواميس الكون والحياة هي من وضع قدير، قوي، قدّوس،... {**ولئن سألتهم من خلق السّماوات والأرض ليقولنّ الله**} فقبل عرض الشّرعيّ من الأنبياء على أصحاب العقول، كان هؤلاء قد أدركوا الأمور الكونيّة على ما هي عليها، فلمّا جاءهم الشّرعيّ علموا أنّه الحقّ، والحقّ هو مطابقة الشّيء لحقيقة الواقع، أي أنّهم أدركوا أنّ باعث هذا (الشّرعي) هو واضع هذا (الكوني): فشهدوا حينئذٍ شهادة الحقّ، ومن هنا فإنّ أولئك المهتدين من الصّدر الأوّل، هم أعظم النّاس فهماً للكون والحياة ونواميسها (حسب رتبة زمانهم)، وهم أعظم النّاس فهماً للدّين والتّشريع (حسب جميع الأزمنة). وهذا الفارق الذي أحسّه بين من أخذ بالشّرعيّ في الصّدر الأوّل، وبين المتدينين في هذا الزّمان المتأخّر، فالأوائل اهتدوا هداية صحيحة، حيث علموا الحقّ في الأمرين (على ما هما عليه) - الكونيّ والشّرعيّ - فسارت خطاهم سليمة، سديدة، مهتدية، ووصلوا إلى قيادة الدّنيا والدّين، وأمّا الأواخر فممّا أحسّ به وأشعره، هو أنّ أغلب المتديّنين في هذا الزّمان تديّنهم تديّن غنوصيّ عرفانيّ، وبمعنى أوضح تديّن الهارب من الحياة، المنكر لسننها، تديّن المتوهّم بأنّ حركة الوجود مربوطة بحركة الغيب كارتباط ألعاب الدّمى بحبال حرّكَتْها، ولا دور للإرادة البشريّة فيها، ومن معالم هذه النّكسات العقليّة عند المتأخّرين هو نفيهم ارتباط الأسباب بالنّتائج، فحيث ساروا في طريق ما ثمّ وصلوا إلى غير المطلوب والمراد، عادوا لهذه القاعدة الخبيثة ليبرّروا بها فشلهم الذّريع وسقوطهم المريع، حتّى يصرفوا عن أنفسهم مساءلة القواعد التّابعة لهم،

والغريب من هؤلاء أنّهم يردّدون ليل نهار أنّ المؤمن عنده أمر زائد عن الأخذ بالسّنة الصّحيحة، وهو التّوفيق الإلهيّ، فالكافر يأخذ بالسّنن دون التّوفيق، ومع ذلك يصل للنّتائج المرجوّة، والمسلم (هكذا يتوهّم نفسه) أنّه أخذ بالسّنّة+ التّوفيق، ومع ذلك لا يحصل على شيءٍ من النّتائج الكونيّة، وأنا هنا لا أتكلّم عن الأجر الغيبيّ، ولكنّي أخصّ الحديث عن النّتائج السننيّة المطلوبة للحركة الإسلاميّة وللعاملين للإسلام في هذه الحياة.

هذه صورة قبيحة لعدم فهم الأمر الكونيّ، وهي تبرز لنا أهمّية البحث الواعي لقضيّة الأمر الكونيّ، كما تبرز لنا أهميّة الوعي لما هو شرعيّ، وحيث انتكس أحدهما في نفس المرء فلا بدّ أن يصاحبه انتكاس في القسيم المشترك معه، وإذ الأمر كذلك، فإحياء الأمّة لا بدّ له من إعادة تجديد (وأكرّر أي إعادته لما كان عليه الأمر وهو جديد في صورته الأولى) لتوحيديْ الشّرع والقدر.

لو عرّجت قليلاً في هذه العجالة على انتكاس مفهوم توحيد القدر في أذهان المسلمين فربّما يبرز شيئاً من الانهيار الواضح لما تعيشه الأمة الإسلاميّة، وشيئاً من أبعاد هذا الانهيار: لو رجعنا قليلاً إلى القاعدة المتقدّمة وهي قولنا: هناك أعمال داخلة في مسمّى الشّيء وهي من أركانه، وهناك أعمال من واجباته، وهناك أعمال من مستحبّاته: فكيف تفهم هذه القاعدة لتفسير ما هو كونيّ وقدريّ؟.

بكلّ وضوح وجلاء إنّ ما نبحث عنه هو التّغيير الجذريّ، والانقلاب الشّامل، وهو في عرف المعاصرين، ما يسمّى بالثّورة، وبكلّ وضوح وجلاء: نحن لا نقرّ شيئاً ممّا هو موجود، إذ أنّه إمّا شرّ مطلق وإمّا شرّ مختلط، وإمّا بعض الخير، فرفضنا للشّرّ بقسميه

واضح سببه، وهو كونه شرّاً، وأمّا للخير الموجود (أي على مستوى الجماعة لا مستوى الفرد) فهو لارتكازه على منطلقات ورؤىً جاهليّة، أو اعتماده على مبادئ ليست من الإسلام في شيء، هذا التّغيير الجذريّ والانقلاب الشّامل ندرك تمام الإدراك أنّها من أعقد ما يجابه الإنسان في حياته، وأنّها من أصعب وأعوص ما يعتري البشر في حركة حياتهم، فحركة التّغيير هي حركة تختلط فيها الحياة بأسرها، وتتقاطع بدايتها حتّى يخيّل للمرء أنّه في دوّامة من الأمواج لا يحسن تمييزها أو الفصل بينها، وهي بحقٍّ كذلك، فألوان الطّيف متداخلة مع أنّها متباينة، وفي هذا الخضمّ المتلاطم يتساءل المرء من أين يبدأ؟ ويتساءل كذلك عن نهاية البداية؟ وما هو الرّابط بين السّبب (الحبل) وبين هذه النّتيجة؟ هذا عن فهمك لطبيعة التّغيير أو لفهمك عن سبل التّغيير، ويبقى أمر يتعلّق بهذا الشّخص الذي يقوم بعمليّة التّغيير، ومدى امتلاء نفسيّته للحقّ الذي يملكه، وللباطل الذي يجابهه.

لو أردنا أن نعيد تلك الأعمال المتعدّدة (أركان وواجبات ومستحبّات) لعمليّة التّغيير (المسمى) فهل نستطيع أن نتبيّن التّفريق بين ما هو ركن وواجب ومستحب، دون تحديدنا لكلّيّة تعيد هذا المتعدّد إلى واحد؟.

إنّ ممّا أدركه الأوائل (وهو إدراك فطريّ سنني معقّد مع سهولته) أنّ القضيّة التي لا يمكن تنازل المرء عنها، وهي التي تحمل المرء على الرّفض الكلّي للخصم هو ارتباط الخصومة بما يسمّى بالعقيدة والدّين، فكلّ الخصومات يرجى برؤها وشفاء المرء منها إلاّ من خاصمك في الدّين والعقيدة: وفي ذلك بيت شعر قاله

الأوائل لم أعد أذكره الآن، وهي قضيّة واضحة المعالم، فالخصومة على المال قد تنتهي إلى الصّلح، وعلى المتاع كذلك، وعلى أيّ شيء، وفي التّاريخ عبر لتوضيح هذا الأمر تعجز هذه الورقات عن سردها أو استيعابها، ولكن هل رأيتم قوماً ساوموا أو اصطلحوا على التّنازل عن عقائدهم؟ الجواب بكلّ وضوح: لا. فقضيّة الفكر والعقيدة لا يساوم المرء عليها، نعم قد يقتنع بضدّها، ولكن ليست هي من معروضات الشّراء والبيع، فإذا اقتنع المرء بصواب فكرته وأنّها الحقّ، فلا بدّ أن يتحرّك باتّجاه الخصم ليغيّره وليبدله إليه، وتتأزّم الخصومة، بل وتؤتي أكلها إذا كان صاحب الفكرة مقتنعاً بالضّلال الكليّ لخصمه، وإذا أردنا أن نفسّر هذه القضيّة السّهلة بما هو مفهوم للشّباب المسلم فنقول: **لو أنّ رجلاً كان يعتقد أنّ ما هو عليه هو الإسلام الصّحيح، وكان يعتقد في خصمه أنّه مسلم ولكن ليس تامّ الإيمان بل مقصّر ببعض الشّيء، فما هي درجة مجابهة هذا المسلم لخصمه المقصّر؟ الجواب واضح، وهو أنّ هذه المجابهة لن تكون شرسة، بل سيكون فيها نوع مهادنة، وستكون في وسط الطّريق أنصاف الحلول السّلميّة والمصالحة، لكن إذا اعتقد المسلم أنّ من يجابهه هو كافر مرتدّ وأنّه مشرك بالله، وليس هناك من شيء عنده مما هو في تقييمه أنّه حسن وجميل، فسيكون الصّراع على أشدّه وتكون المجابهة في أعلى درجاتها، وهذا الصّراع الذي يؤتي أكله، ويجني ثماره.**

وجماعات الجهاد في العالم الإسلاميّ حيث طرحت نفسها بهذا الطّرح، وهو أنّها تسعى للتّغيير الجذريّ

والانقلاب الشّامل، فلا يمكن لأفرادها الصّمود إلاّ إذا اعتقدوا بدليل الشّرع والقدر أنّ هذه الحكومات هي حكومات شرك وردّة، وأنّ التّخلّي عن هذا التّصوّر السّليم سيرفع عن المقاتل سنّة النّصر القدريّة بامتلاء النّفس وثقتها، وسيرفع عنهم التّوفيق الإلهي الحاصل بامتثال الأمر الشّرعيّ، وسيصيبنا قوله تعالى: {إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا}.

إنّ الجماعة التي تطلب من أفرادها حمل السّلاح ثمّ تحمل نتائج هذا المشروع، ولم تقنع أفرادها، أو لن تتبنّى هي أنّ الخصم الذي تقاتله هو كافر، وأنّ المشروع سينتهي بأحد أمرين - تقاتلونهم أو يسلمون - كما قال تعالى في سورة الفتح هي جماعة ستقنع في النّهاية بأنصاف الحلول، ثمّ الجلوس على موائد المفاوضات الهزيلة، وحينها تحصل الهزيمة.

والمسألة ليست مصالح لتحقيق النّصر بقدر ما هي أوامر إلهيّة - شرعيّة وقدريّة - لا بدّ من فهمها والاعتقاد بها. هذه مقدّمة ضروريّة لبحث كفر الحاكمين بغير شريعة الرّحمن وردّتهم.